

ظاهرة خراب المدن بالزاب والمغرب الأوسط أسبابها مظاهرها و آثارها

د. شخوم سعدي

—جامعة جيلالي اليابس

—سيدي بلعباس—

برزت بالمغرب و الأندلس مدن عدة بعد فتحها و استقرار العرب و تمازجهم مع البربر اجتماعيا و سياسيا ، و لم تشذ منطقتي الزاب و المغرب الأوسط عن هذه الحالة فقد عرف ظهور عدة مدن منها ما كان موجودا ومصره المسلمون مثل طنبه¹ و غدت عاصمة اقليم الزاب، ومنها ما أنشئ بعد الفتح مثل ميلة و بعد قيام الدول المحلية مثل تاهرت و أشير و غيرها من الأمصار ، إلا أن المغرب عرف ظاهرة جالبة للانتباه و هي تخريب المدن التي عرفها أعلى مستوى لها بظهور الدول الفاطمية بإيكجان و توسعاتها في أدنى المغرب و أقصاه ، فقد تعرضت مدنه لحملة هائلة انتهت بخراب أغلبها ، و نشير هنا إلى أن المغرب —ككل — عرف مثل هذه الظاهرة في عهد الكاهنة التي واجهت حسان بن النعمان . و المراد في هذا العرض هو الوقوف على النوازع الحقيقية التي أدت إلى عمليات التخريب المتتالية التي ساهمت فيها قبائل مغربية مثل صنهاجة ثم العرب الداخلين للمنطقة في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي)، و سنعتمد أساسا على كتب الجغرافية المعروفة و كتب التاريخ المغربية و الأندلسية التي تحدثت عن هذه المصار لا سيما في مرحلة الصراع الأموي الفاطمي خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). و سيتم التركيز على منطقتي الزاب و المغرب الأوسط لأنهما عرفتا أعلى نسب المدن المدمرة مقارنة بباقي مناطق المغرب و لنهما منطقتا التماس بين صنهاجة و زناتة.

عوامل خراب المدن :بين الرافد الخارجي و الدافع المحلي :

ذكرنا سابقا ان ذروة خراب هذه المدن كان بظهور الدولة الفاطمية بالمغرب (296-355هـ / 909 - 966 م) ، و قد يظهر في بداية الأمر أن الحروب التي كانت بين هذه الدولة و غيرها من الدولة المجاورة لها في المغرب الأوسط مثل الإمارات العلوية (173-342 هـ / 789 - 954 م) أو الدولة الرستمية (160-296 هـ / 777-909 م) ذات الطابع المذهبي هي سبب هذه الظاهرة أو الحرب التي لحقت بها أيام بني زيري (361-547 هـ / 971-1152 م)، إلا ان الواقع و القاريء لما كتبه الجغرافيون —بعيدا عن الحالة الدينية و تأثيراتها— يجد أنه قد صاحب هذا العامل عوامل أخرى أكثر تأثيرا و بروزا في بعض الحيات و يمكن حصر بعض هذه العوامل فيما يلي:

- الحروب المحتدمة بين صُنهاجة و زناتة : ذكر ابن خلدون أن هذا الصراع قدسِم منذ مجيء الإسلام² ، ولما ظهر امر

صنهاجة بظهور دولة الفاطميين زحف الصنهاجيون على مواضعهم و هدموه³ ، و هو ما لوحظ تقريبا لدى الدولة المرابطية في زحفها على مواضع مغراوة الزناتية⁴.

- الصراع المذهبي و امتزاجه بالعصبية القبلية : و هو ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته و يبدو أن كثيرا من القبائل في تلك الفترة رأت ما حازته مضرية العرب من شرف النبوة فأرادت ان تكسب مثله لكنه أخذ لون المذهبية⁵ .

- أحوال قبيلة كتامة: فالمتابع لسيرة هذه القبيلة يلاحظ أنها تقوم بعملية تخريب لكل مدينة تحاصرها من مدن المغرب خاصة إذا رفض أهلها الإستسلام لهم⁶ ، و كان هذا في طول طريقهم نحو مصر كما ذكر البكري⁷ ، و قد يخالف هذا الحال مذهب ابن خلدون في بدو العرب من الأعراب⁸.

- تملُّكُ كتامة و الفاطميين لآلات الحرب: لعبت هذه الآت ذات صبغة التهديمية و من أشهر هذه الآلات المذكورة في المصادر⁹ : الدبابة¹⁰ و المجانيق و العرذات¹¹ و الأبرجة¹² ، و ظهور هذه الآلات في الحرب يستفز الباحث لمعرفة مدى كونها صناعة كتامية مكتسبة منذ عهد البزنطيين أم أنها طارئ جاء مع الفتح، و المعروف أن هذه الآلات عرفت زمن الفتوحات الإسلامية ، و من جهة أخرى فأتخاذ مثل هذه النوع من السلاح يشير إلى رغبة في إزالة المعالم — كما هو ظاهر- و لعل هذا يناقض في ظاهر كلام ابن خلدون حول العرب الذين لم يملكوا هذا النوع من الآلات الحرية النظامية بل نقل في الفتاوى أن فقهاء افريقية حرموا بيعهم الآت و السلاح ؛ و يذهب ابن خلدون إلى وصفهم —أي أعراب افريقية— بأنهم أسرع للخراب إذا ظهروا و كتب التاريخ الناقلة لأخبار صنهاجة تتحدث عن هذا التخريب المُنْمَهج و المنظم للأمصار.

مظاهر التخريب و أهم المدن المخربة :

تميزت عملية التخريب في منطقتي الزاب بتعدد عمليات التخريب ؛ وهو ما يُلاحظ في أرشقول أو طنبنة و في فترات مختلفة ؛ حتى بعد انتقال الفاطميين للمشرق سنة 355هـ / 966م ، و مما يميّز عملية الهدم اصطحاب الحرق معها¹³ و الظاهر أن سبب الحرق هو منع أهل المدينة من العودة إليها؛ أو أن تتحول إلى ثغر للخصوم ؛ كما يبدو لنا من خلال ما سيذكر. و الملاحظ أن عملية الهدم و الحرق تركزت في منطقتي الزاب و المغرب الأوسط لانتشار قبيلة زناتة خاصة فرعيتها مغراوة و بنو يفرن¹⁴ ، و نال التخريب المدن التالية؛ و ذلك بالانتقال من الزاب إلى المغرب الأوسط ما بين شلف إلى ملوية حسب الترتيب الزمني :

- **ميلة**: كانت ميلة مدينة عامرة محصنة تتبع بني الأغلب¹⁵ ، لكنها دخلت في ولاء أبي عبد الله الشيعي و كتامة سنة 296 هـ / 909م¹⁶ ، فأرسل لهم ابراهيم بن أحمد الأغلي ابن أبو عبد الله الأحول¹⁷ الذي قام بحرق المدينة¹⁸ ، لكنها عادت و عمرت من طرف أبي عبد الله بعدها بسنة¹⁹ ، لكن ميلة عادت و خربت سنة 378 هـ / 988م، على يد أبو الفتح المنصور الزيري بسبب حروبه مع كتامة²⁰؛ لكنها عمرت بعد ذلك²¹.
- **بلزمة**: كانت مسكنا لبني تميم من عرب الفتح ومواليهم²² ، و كانوا في ولاء الأغالبة ؛ فزحف إليهم أبو عبد الله الشيعي سنة 299 هـ / 912م ، و كان قبل ذلك بسنوات يأتي على مزارعهم فيما يبدو أن حصّر لهم حتى قضى على محاصيلهم ، فكّر على المدينة و أحرقها رغم مقاومتها إذ أن أهلها استعملوا نفس أسلحتهم المشار إليها أعلاه ، و حاصر المدينة مرة أخرى حتى بلغ منهم الجوع مبلغا عظيما فأكلوا البهائم و جلودها فهدم سور المدينة بعد حرقها²³.

- **تاهرت**: لعلها من أهم المدن التي أغفل الحديث عن خرابها سواء في المصادر الإسماعيلية مثل افتتاح الدعوة و المجالس و المسابير و كلاهما للقاضي النعمان (292-363 هـ / 905-974م)، و كذلك الكتب المشهورة التي أطنبت الحديث عن أيام الفاطميين مثل ابن عذاري و ابن الأثير لم تشر بتفاصيل خراب المدينة، غير أن أبا زكريا يحيى بن عبد الرحمن الوريحاني نقل الحديث عن خرابها ، وكذلك الدرجيني فصل في خرابها و كان السبب

الرئيس في ذلك الصراعات الداخلية في البيت الرستمي (بنو اليقظان و يوسف بن محمد) و تأمر دوسرة (أو دوس) مع أبي عبد الله الشيعي للقضاء الدولة ؛ ورغم ذلك فقد استباحها الشيعي و دمرها و أحرق مكتبتها المسماة المعصومة التي لم يبق منها إلا كتب علوم الطبيعة كما ذكرت المصادر الإباضية ²⁴ ، و قد ترك هذا الخراب أثرا سيئا في أهل تاهرت فقد رثاها بكر بن حماد التاهرتي ²⁵ (البسيط):

زرنا منازل قوم لم يزورونا... إنا لفي غفلة عما يقاسونا

لو ينطقون لقالوا: الزاد، ويحكم... حل الرحيل فما يرجو المقيمونا

الموت أجحف بالدنيا فخر بها... وفعلنا فعل قوم لا يموتونا

فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم... فالحاملون لعرش الله باكونا

ماذا عسى تنفع الدنيا مُجمِعها... لو كان جمع فيها كنز قارونا

و قد نقل الباروني رثاء آخر لشاعر لم يذكر اسمه يتحدث فيها عن ما حل بالمدينة ²⁶ (الطويل):

خليلي عوجا بالرسوم و سلما على طلل أقوى و أصبح أغبرا

ألما على رسمٍ تيهرت دائرٍ عفته الغوادي الرائحات فأفقرا

كأن لم تكن تيهرت داراً لمعشرٍ فدمرها المقدورُ فيمن تدمرا

و عادت المدينة و عُمّرت ، بعد أن ولى عليها عامله دواس الذي سرعان ما ثار عليه أهل المدينة سنة 299 هـ

/ 911 م و ولوا مكانه محمد بن خزر الزناتي ؛ فقاد عبيد الله المهدي حملة نحو يبدو أنها أشد من الأولى قتل فيها

ثمانية آلاف نفس كما تذكر بعض المصادر ؛ و ذلك مدة ثلاثة أيام و تذكر هذه المصادر انه سبي الذرية و

النساء ²⁷ ، و في عهد الزييرين ؛ عهد أبي الفتوح يوسف (بلكين) بن زييري (362-373 هـ / 972-

984م) تعرضت لتخريب ثانٍ بعد أن ثار أهلها على عامل الزييرين خلوف بن أبي محمد و هذا سنة 362 هـ /

973م و يبدو حسب الوصف ان المدينة أحرقت و سبي نساؤها و أطفالها ²⁸ ، ثم تعرضت لعملية نهب واسعة

على يد الفاطميين سنة 322 هـ / 924 م بعد ان ثاروا ضد عاملها أبي القاسم ²⁹ .و عادت و عُمّرت حتى

تعرضت لأخر عملية هدم نهائي حسب ابن خلدون سنة 605 هـ / 1208م بسبب الحرب بين بني غانية

(بزعامه يحيى بن اسحق الميورقي) و أبي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن فخرت المدينة و لم تعمر

بعدها ³⁰ ،و كانت هذه الفترة ايذانا بنهاية دور هذه المدينة العمراني و الحضاري بعد أن لحقتها النكبات بسبب

وجودها في الواجهة الجغرافية للصراع الصنهاجي الزناتي الذي اخذ صورا متعددة سياسية و دينية.و نتيجة هذه

الثورات و هذا التخريب المتتالي احتفظت تاهرت بصورة سئة لدى زناتة فقد وصفها الخير بن محمد بن خزر بأنها

دار المشركين و مأوى الملحدين ³¹ ، و يبدو أ، تاهرت كانت نقطة الصراع بين صنهاجة و زناتة إلى أن ظهرت

تلمسان التي لم تتمكن صنهاجة من السيطرة عليها لمنعتها.

● أفكان : و يذكرها ابن خلدون برسم (ايفكان) كانت أفكان قرب وادي الصفاف (يذكره البكري باسم وادي

سي و يذكر المدينة باسم فكان) ³² ؛ و كانت تحتوي على رحي و حمامات و قصور و فواكه و حمامات و لها

سور يحيط بها يقسمها واديها إلى قسمين³³ ، و كانت سوقا من أسواق زناتة و كانت تحت إمارة يعلى بن محمد اليفريني الذي دخل في ولاء الأمويين سنة 347هـ / 958م³⁴ ، ثم عمّرها و مَصَّرَها سنة 338 هـ / 949م و نقل إليها أهل تاهرت و وهران و فلوسن و يلل فعظمت المدينة³⁵ . و نتيجة موقف يعلى زحف عليها أبو الحسن جوهر الصقلي و خربها في هذه السنة (347 هـ / 958م) ، يبدو -حسب و صف الإدريسي- أن الذي تخرب منها سورها³⁶ . و بقيت المدينة على حالها³⁷ ، و يمكن القول أن تمصير ايفكان كان محاولة من زناتة لإنشاء مدينة جديدة على أنقاض تاهرت ؛ و يفسر هذا ما قام به يعلى بن محمد اليفريني من نقل أهل المدن المذكورة إلى هذه المدينة التي أنشأها لكن يبدو أنها تعرضت لما تعرضت له تاهرت.

● **باغاية:** كانت باغاية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بها جند العباسيين

و خراسانيين و قبيلة هواره و كانت ضمن منطقة الزاب³⁸ ، و في القرن الرابع كان لها سور ؛ و كانت غلاتها من الحنطة و الشعير³⁹ ، و قد لعبت دورا هام في حروب كتامة مع بني الأغلب ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، و في حروب كتامة و كانت في ولائهم إلى أن اندلع صراع داخلي في البيت الصنهاجي بين زيادة الله بن القدم (أحد ولاة يوسف بن بلكين المذكور أعلاه و عبد الله بن محمد) و كان هوى أبي الفتوح مع عامله عبد الله ضد بن القدم الذي ثار احد جنوده (خلف بن حسين) سنة 364هـ ، فقتله ابو الفتوح و أفرغ باغاية من اهلها و هدم سورها⁴⁰ ، و المتتبع لدورها الرئيس في عهد صنهاجة و زناتة يلاحظ تراجعها في عهد الموحيدين و الحفصيين بسبب بروز دور مدينة بسكرة التي كانت حاضرة إمارة بين منزي من العرب.(677 - 804 هـ / 1279-1402م).

● **مجانة:** عُرفت مجانة بوفرة المعادن كالذهب و الفضة و كان بها بعض جند الأغالبة⁴¹ ، و يذكر ابن حوقل وفرة الزرع بها و بوجود وادٍ (وادي ملاق) بها بالإضافة إلى المطاحن⁴² ، و عند خروج أبي عبد الله الشيعي نُهبت في حربه مع الأغالبة⁴³ ، و لمّا خرج أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفريني على الفاطميين هدم سورها⁴⁴ .

● **أرشقول:** تكتب بالكاف المعجمة و أحيانا :أرشگون بالكاف المعجمة ، و يرسمها الإدريسي بأرجكون، و كانت حاضرة عامرة في عهد بني سليمان العلويين، و نتيجة الحرب بين زناتة و صُنهاجة تعرضت لحملة تخريب متوالية ، و قد سيطر عليها ميسور الخصي الذي أرسله عبيد الله المهدي لقتال إبراهيم بن إدريس السليماني سنة 324هـ / 937م و سجنه و يذكر المؤرخون تعبيراً يوحى بأن المدينة تعرضت للتراجع فيذكرون أنه ميسورا اصطلم (استأصل) نعمة إبراهيم بن إدريس ، و أصل الرواية عند ابن حيان في المقتبس في رسالة بعثها عينٌ للناصر يدعى محمد بن عون⁴⁵ ، لكن يبدو أنها تعرضت للخراب فعلا هي و الجزيرة المقابلة لها سنة 325 هـ / 938م لكن هذه المرة على يد بني خزر عمال الأمويين بالعدوة⁴⁶ ، ثم أخليت من سكانها سنة 338 هـ / 949م حيث أجّلوا إلى الأندلس⁴⁷ لكنها عادت و عمّرت على يد المنصور بن أبي عامر و جعل بها حامية عسكرية ، و يبدو أنها اتسعت في هذه الفترة كما وصفها البكري⁴⁸ ، و في عهد الموحيدين عادت لعهدا كما وصفها الإدريسي⁴⁹ الذي عاصروهم ، ثم خرب سورها أمير بني غانية علي بن اسحق سنة 581هـ / 1185م ،

ثم تعرضت للتخريب نهائياً على يد المرينيين⁵⁰ و يبدو أن هذا كان على عهد أبي يعقوب يوسف بن يعقوب الناصر المريني عند حصاره تلمسان سنة 702 هـ / 1302 م ، و لعل المدينة لم تعمر بعد هذا حسب كرفخال⁵¹.

- **وهران :** كانت وهران من أهم مراسي المغرب الأوسط أسسها بعض الأندلسيين مثل محمد بن عون⁵² (حيا سنة 324 هـ / 936 م) و محمد بن عبدون⁵³ (حيا سنة 325 هـ / 937 م) بمساعدة بعض قبائل البربر مثل نفزة و بنو مسقن و قد مصرّت سنة 290 هـ / وكانت ثغرا مهما في الصراع بين الأمويين و الفاطميين ، و قد تعرضت للخراب سنة 297 هـ / 910 م ، و قد ساق البكري رواية مفادها أن سبب خرابها أو إحراقها كانت دماء بين بني مسقن و بعض القبائل⁵⁴ ، بينما يذكر ابن خلدون أسباب الحرب هو الصراع بين كتامة و بني خزر و استحابة قبيلة بني مسقن لدعوة دواس بن صولات اللهيضي القائم بدعوة المهدي بن عبيد الله بتاهرت⁵⁵ ، ثم عمّرت مرة أخرى بعدها بسنة ، ثم خربها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني سنة 343 هـ / 955 م بعد أن نقل أهلها إلى افكان (ايفشان) ، ثم عمّرت مرة ثانية بعد هذا الخراب إلى أن خربها ابن غانية في السنة التي خرب المصار القريبة منها في حربه مع الموحيدين⁵⁶.

- **القلعة :** كانت القلعة تعرف بداية بقلعة أبي طويل و كانت حصن لأبي يزيد مخلد بن كيداد⁵⁷ ، ثم تسمت بقلعة حماد بعد أن أصبحت عاصمة لهم و كانت أبلغ التمدن عمراناً و نشاطاً زراعياً و علمياً؛ وبعد ظهور دولة الموحيدين المصمودية دخلت في حرب مع بني حماد التي كنت تمثل امتداد في مواجهة صنهاجة معهم فزحف عبد المومن بن علي على القلعة بعد أن استسلمت له بجاية و خربها عن آخرها و أحرقتها و يذكر ابن خلدون أن عدد القتلى بلغ ثمانية عشر ألف قتيل و هذا سنة 547 هـ / 1152 م⁵⁸ ، ومن الصعب قبول هذه الرواية لسببين : فحسب بعض الدراسات فإن عدد السكان بالمغرب خلال هذه الفترة كله كان حوالي تسعة ملايين⁵⁹ أي 2% من سكان العالم، ولو قسنا ضحايا هذه المعركة مع عدد السكان الذي من المعلوم أنهم قد انتقل الكثير منهم إلى بجاية ، بالإضافة إلى أن صنهاجة قد انهزمت فعلاً في شرقي بجاية و كان عدد جيش عبد المؤمن عشرين ألف و انهزمت صنهاجة ، فمن الصعب القبول بهذا العدد من القتلى ، و قد نقل ابن الأثير رواية أخرى⁶⁰ تذكر أن أهل القلعة قد فروا إلى الجبال و ذكر أن المدينة كانت لا ترام مما يشكك في قصة حرقها ، و لعل كل هذه الرواية هي من جملة الحرب النفسية التي كان يقودها الموحدون ضد خصومهم و نلاحظ ذلك في كتب مثل كتاب الحلل المشوية⁶¹ و البيان المغرب⁶² و يبدو أن ابن خلدون قد تابعهم في ذلك، و قد رثى المدينة بعد خرابها أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي (628 هـ / 1231 م) بقصيدة جاء فيها⁶³ (بسيط):

أين العروسان لا رسم ولا ظلل
و مجلس النوم قد هبّ الزمان له
و ما رسوم المنار الآن مائلة
فانظر تر ليس إلا السهل والجبل

وقصر بلّارة أودى الزمان به
قصر الخلافة أين القصر من خرب
وليس ينهجنى شيء أسر به
فأين ما شاد منه السادة الأول
غير اللجين وفي أرجائها زحل
من بعد أن نهجت بالمنهج السبل

وقد عرى الكوكب التعبير والبذل
له رسم ولا أثر باق ولا طلل

وما روى الكوكب العلوي معتلم
وقد عفى قصر حماد فليس
و له مرثية اخرى يرثي فيها قصورها⁶⁴ (الطويل) :

بوادي الجوي ما بين تلك الجداول
تجاوب في تلك الغصون المـوائل
فابرد من حر الضلوع النـواهل
على الوجنات الزاهرات الخمـائل
نجوم تبددت في سعود المـنازل
و انزلـنني في غير تلك المنازل
ستبقى بقاء الطالعات الأواقل

ألا ليت شعري هل أبين ليلة
وهل أسمع تلك الطيور غـدية
وهل أـردن عين السلام على الصدى
وانظر طيقان المنار مطلة
كأن القباب المشرفات بأفقه
فإن ثنت الأيام عنها أعنتي
فصبـرا جميلٌ غير أن صبابتي

- **أشير:** بُنيت أشير سنة 324هـ / 935م على يد زيري بن مناد ، وكانت حصينة ، ونتيجة الصراع الداخلي في البيت الحمادي بين محسن بن القائد و أعمامه دمرها يوسف بن حماد أحد أعمام محسنة ؛ و قد ذكر البكري أنها دمرت بعد 440هـ⁶⁵ ، و يمكن القول انها دمرت في ولاية محسن (446-447 هـ / 1054-1055م و من المحتمل أن يكون ذلك إثر بناء قلعة الطيارة⁶⁶ ، فالملاحظ ان كثيرا ممن يخرّبون مدنا يبنون مدنا اخرى قربها او ليست بعيدة عنها ، ثم عمّرت سنة 455 هـ / 1063م ، ثم خربها تاشفين بن يتنمر سنة 486 هـ / 1093م⁶⁷ .

- **المنصورة:** بنى هذه المدينة يوسف بن يعقوب أثناء حصاره لتلمسان سنة 698 هـ / 1299م ؛ و أحاطها بسور و حسب وصف ابن خلدون كانت مدينة تشبه الحاضرة فقد وجد فيها الفنادق الحمامات و حتى المارستان و ذكر أنها كانت من اعظم مدن المغرب⁶⁸ ، و قد ذكر التنسي أن اسمها تلمسان الجديدة⁶⁹ ، فخرها بنو عبد الواد سنة 706هـ / 1307م ، لكنها عادت و عمّرت على يد السلطان أبي الحسن المريني سنة 735هـ / 1335م ، و خربت مرة و أصبحت آثار كما ذكر التنسي سنة 865هـ / 1460م.

النتائج العامة لانهيار المدن :

- ترك انهيار المدن في الزاب و المغرب الوسط آثار عديدة باعتبار تعدد مظاهره و شموله النواحي العديدة حتى النفسية منها كما يظهر مما ذكر أعلاه من شعر رثاء و القتل الجماعي و يمكن حصر الآثار الخاصة بهذه الظاهرة فيما يلي:
- الآثار الاجتماعية: يمكن اعتبار هذا الجانب من اهم آثار خراب المدن لانه يمس الإنسان مباشرة حتى و إن لم تكن علاقة مباشرة بالحدث او حتى غير مباشرة ، و قد كان كثير من اهل المدن المهتمة يطلبون المان من المحاربين فأحيانا يلقون القبول و أحيانا يكون ضحايا هذه المعارك و الحروب ، و من الآثار الاجتماعية المترتبة عن هدم المدن و تخريبها نذكر:
- انتقال عائلات و قبائل بأكملها من منطقة إلى منطقة ، و على سبيل المثال نذكر قبيلة عسيحة التي ينتسب لها بنو مرزوق من عجيصة الذين انتقلوا من القيروان فالقلعة بعد حروبهم مع أبي يزيد مخلد بن كيداد⁷⁰ ثم تلمسان فأشير⁷¹ ، و لعله من باب الإستنتاج أن نستنتج أن الأمر ممكن بالنسبة لعائلي المقري المنسوبة لمقرة و العقباني المنسوبة أصلا للقيروان قديما او افريقية.
- ظهور مدن جديدة على حساب مدن قديمة كما الأمر بالنسبة للمسيلة التي عمّرت على حساب طينة ، و القلعة التي عمّرت على حساب سوق حمزة و المسيلة⁷² إما بانتقال القبائل البربرية إليها ، أو بنقلهم .
- انحصار سيطرة قبيلة صنهاجة البرنسية لحساب زناتة التي ازدادت قوة بانتقال القبائل الهلالية للمنطقة، و بظهور نفوذ المصامدة بفضل دور الموحيدين.

- حركة بناء و تخريب المدن كثيرا ما ارتبطت بالحروب كما كان شأن المنصورة قرب تلمسان ، و تاميز ديث التي يرميها ابن خلدون : تامز دگت التي بناها أبو تاشفين الزياني 721 هـ / 1321 م ، و خربها أبو الحسن المريني سنة 731 هـ / 1331 م⁷³ ، و الأمر نفسه بالنسبة للمسيلة التي خربها سنة 732 هـ / 1331 م⁷⁴ .

الآثار السياسية : يبدو ان الآثار السياسية تظهر جليا في سقوط و خراب عواصم الدول الظاهرة بالمغرب ، مثل تاهرت بالنسبة للرستميين ، و القلعة بالنسبة لني حماد، لكن انخيار هذه المدن الكبرى كان يحمل إشارة لا تقل اهمية عن هذا المظهر ألا و هو انحصار دول القبائل الكبرى في مجمل الصراع السياسي ، فقد حمل انخيار تاهرت إشارة لانحصار دور بني يفرن و هوارة في المواجهة مع صنهاجة التي تبنت دعوة الفاطميين، و انخيار القلعة علامة أخرى على ضعف دور صنهاجة السياسي بإفريقية و المغرب ، و من جهة أخرى ظهور دور جديد لقبائل أخرى مثل بني خزر الذي ظهر دورهم كقبيلة فاعلة في زناتة بفضل المدن التي اخذوا في تشييدها ، و مصمودة التي اخذت توسيع نفوذها على حساب صنهاجة و زناتة خاصة في عهد الموحيدين⁷⁵ .

الآثار الاقتصادية : لعبت الكثير من المدن المذكورة أدوارا هامة في الجانب الاقتصادي و المقصود هنا التجارة ، و لعل اهم أثر مباشر لذلك هو انخيار الأسواق و الموانئ التجارية، و قد ظهر ذلك جليا في انخيار الدولة الرستمية التي كانت حلقة وصل تجارية بين إفريقية و المغرب الوسط و الزاب و الأندلس إلى أقاصي المغرب و بلاد السودان ، و العكس في المدن المعمرّة فبعمرائها تزدهر التجارة بأسواقها وانتقال التجار إليها⁷⁶ .

الآثار العلمية و الثقافية : فكثير من التمدن المخربة تحوي مساجد و ربما مدراس ساهمت في الحركة العلمية و بانخيارها ينهار معها النشاط العلمي كما تجلى ذلك في القلعة خاصة و غيرها من مدن المغرب⁷⁷ ، و النتيجة الأخرى هو انتقال العلماء مشرقا و مغربا كما يظهر ذلك في مختلف تراجمهم خاصة الأندلسية ، و المشرقية التي أرخت لهم. و هكذا مثلت عملية هدم و تخريب المدن بالمغرب الأوسط و الزاب ظاهرة لافتة للانتباه في الفترة الوسطى و كان من أهم خاصية مصاحبة للحروب بين مختلف الدول المتعاقبة ، و ادت إلى انخيار الكثير من المدن التي لعبت دورا هاما في الصراع بين القبائل البربرية الكبرى ، و كان الكثير من المدن بمثابة مراكز متقدمة للصراع خاصة الصنهاجي و الزناتي الذي بقي من اهم أسباب الصراع في الفترة الوسطى بالمغرب، و لعل الدراسات الأثرية - في قابل الدراسات - تساعد في الوقوف على أبعاد أخرى لهذا الحال الذي عرفه المغرب الأوسط و الزاب .

الهوامش:

- ¹ حول طينة يُراجع مقال الأستاذ الدكتور موسى لقبال : طينة مدينة الزاب و الأوراس في العصور الوسطى، الأصاله (83-102)، السنة السابعة العددان 60-61 ، رمضان / شوال 1398 هـ - أوت / سبتمبر 1978.
- ² ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر بيروت : 1408 هـ / 1988م ، ج6، ص: 142.
- ³ ابن خلدون ج7، ص: 37.
- ⁴ ابن خلدون ج7، ص: 62.
- ⁵ ابن خلدون ج7، ص: 6.
- ⁶ القاضي النعمان، افتتاح الدعوة تحقيق فرحات الدشراوي ، الشركة التونسية للتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، الطبعة الثانية 1986، ص: 179.
- ⁷ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المسالك و الممالك، دار الغرب الإسلامي ، بيروت: 1992، ج2، ص: 246، وص: 609.
- ⁸ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، المقدمة بتحقيق علي عبد الواحد وافي ، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الرابعة 2006، ج2، ص: 508.
- ⁹ القاضي النعمان ، المصدر السابق، ص-ص: 178-179.
- ¹⁰ ذكر الزبيدي صاحب تاج العروس أن الدبابة آلة تتخذ من جلود وخشب للحروب يدخل فيها الرجال (فتدفع في أصل الحصن) المحاصر: فينقبون وهم في جوفها ، وهي تقيهم ما يرمون به من فوقهم، سميت بذلك لأنها تدفع فتدب، وفي حديث ابن عمر (كيف تصنعون بالحصون قال: نتخذ دبابات تدخل فيها الرجال:
- الزبيدي(محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي هلال ، مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية ، 1407 هـ / 1978، ج2، ص: 395.
- و للاستزادة في آلات الحرب عند المسلمين في الفترة الوسطى يُنظر:
- الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول(694هـ / 1294م)، المخترع في فنون من الصنع ، تحقيق: د/ محمد عيسى صالحة ، مؤسسة الشراع العربي ، الكويت : 1989، ص-ص: 122-157.
- ¹¹ هو آلة حربية أشبه بالمنجنيق لكنها أصغر منه:
- الزبيدي، المصدر السابق، ج8، ص: 378.
- ¹² الظاهر من خلال هذا اللفظ الذي ذكره القاضي النعمان (بتحقيق الدشراوي) أن المقصود به ما كان يعرف برأس الكبش أو سلم الحصار و هو عبارة عن كتلة خشبية ضخمة مستديرة، يبلغ طولها حوالي عشرة أمتار أو أكثر، قد رُكَّب في نهايتها مما يلي العدو، رأس من الحديد أو الفولاذ، و يركب السنان الحديدي على الرمح الخشبي، وتندلى هذه الكتلة من سطح البرج أو الدبابة، محمولة بسلاسل أو حبال قوية تربطها من موضعين، فإذا أراد الجُند هدم سور أو باب قَرَّبوا البرج منه، ثم وقفوا داخله على العوارض الخشبية، ثم يأخذون في أرجحة رأس الكبش للخلف والأمام، وهو معلق بالسلاسل، ويصدمون به السور عدة مرات و كان يحمل داخل برج في دبابة او غيرها و ربما ذكره القاضي النعمان بهذا الإسم الذي لم نجد له أصلا في معاجم اللغة إلا في كتب التاريخ العسكري:
- محمود شيت خطاب، العسكرية العربية الإسلامية ، كتاب الأمة 1403 هـ ، ص: 166.
- ¹³ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في اخبار الأندلس الو المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال و ج. س. كولان ، دار الثقافة ، بيروت : 1983، ج1، ص: 162.
- ¹⁴ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص: 227.
- ¹⁵ اليعقوبي (أحمد بن اسحاق)، كتاب البلدان ، مطبعة ليدن : 1890، ص: 140.
- ¹⁶ القاضي النعمان ، المصدر السابق، ص-ص: 136-137.

- ¹⁷ يذكره القاضي النعمان باسم أبوحوال: المصدر السابق، ص: 142.
- ¹⁸ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج3، ص: 452.
- ¹⁹ القاضي النعمان، المصدر السابق، ص: 166.
- ²⁰ ابن عذارى ، المراكشي ، المصدر السابق، ص: 243.
- ²¹ ابن عذارى ، المراكشي ، المصدر السابق، ص: 244.
- ²² اليعقوبي ، المصدر السابق، ص: 141.
- ²³ القاضي النعمان ، المصدر السابق، ص-ص: 178-179.
- ²⁴ الدرجنبي (أبو العباس أحمد بن سعيد)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاي، دار البعث ، قسنطينة ، بدون سنة ، ج1، ص: 94.
- ²⁵ محمد بن رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية : مستغانم : 1385 هـ / 1966م ص: 90.
- ²⁶ الباروني (سليمان)، الأزهار الرياضية في أخبار أئمة و ملوك الإباضية ، دار بوسلامة ، ج2، ص: 141.
- ²⁷ ابن عذارى ، المصدر السابق، ج1، ص: 166.
- ²⁸ الهادي روجر ادريس ، الدولة الصنهاجية ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب ، بيروت ، ط1: 1992 ، ج1، ص: 82.
- ²⁹ ابن حيان (حيان بن خلف بن حيان القرطبي) . المقتبس . تحقيق شالميتا و كورينطي و محمود صبح، المعهد الاسباني العربي للثقافة ، مدريد : 1979 ، ص: 373.
- ³⁰ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص : 375.
- ³¹ ابن حيان ، المصدر السابق، ص: 260.
- ³² إذا طابقنا هذا الوصف فإن وادي الصفاصف يمثل تسمية مدينة سفيظف الحالية و قد تكون فكان أو ايفكان او افكان هي القصة القديمة لمدينة بوحنيفة الحالية إذا أن بها حمامات كما ذكر ابن حوقل ، و يقسمها وادي الصفاصف إلى قسمين ، و قد ذكر البارون دو سلان أنها مدينة في جنوب شرق معسكر عند تقاطع واد فكان مع أولاد (كذا) حمام حوالي 33 كيلومتر ، و يبدو أن مدينة بوحنيفة أقرب للوصف لاشتمالها على الآثار الرومانية كما ذكر ابن حوقل في وصف افكان ، و لا يعرف وجود للآثار الرومانية بعين فكان الحالية ، و لم يشر الجغرافيون المغاربة لها في كتبهم بعد الإدريسي و حتى الحميري تبع الإدريسي في وصفها :
- Mac Guckin De Salan, Description de l'Afrique septentrionale par El-Bekri, édition : revue et corrigée Alger, 1913 , p : 160.
- الحميري (الروض المعطار في خبر الأقطار)، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ط 2 : 1984 بيروت ، ص: 441.
- ³³ ابن حوقل (محمد الموصلي البغدادي)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت : 1992، ص: 88.
- ³⁴ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، تحقيق مجموعة من العلماء ، دار الكتاب اللبناني ، 1403-1983، ج6، ص: 354. و ابن خلدون ، المصدر السابق، ج4، ص: 97.
- ³⁵ البكري (أبو عبيد) ، المغرب في ذكر إفريقيا و المغرب ، ص: 79.
- ³⁶ الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله)، نزهة المشتاق في اختراق الأفامكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة : 1422 هـ / 2002 م، ج1، ص: 251.
- ³⁷ نفسه.
- ³⁸ اليعقوبي ، المصدر السابق، ص: 140.
- ³⁹ ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 84.
- ⁴⁰ ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص: 47.
- ⁴¹ اليعقوبي ، المصدر السابق، ص: 138.
- ⁴² ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 84.
- ⁴³ القاضي النعمان ، المصدر السابق، ص: 208.

- ⁴⁴ ابن الأثير ، المصدر السابق، ج6، ص:303.
- ⁴⁵ ابن حيان ، المرجع السابق، ص: 385 .
- ⁴⁶ ابن حيان ، المرجع السابق، ص: 414 .
- ⁴⁷ البكري ، المصدر السابق، ص:78.
- ⁴⁸ البكري ، المصدر السابق، ص:77.
- ⁴⁹ الإدريسي ، المصدر السابق، ص-ص:534-535.
- ⁵⁰ مرمول كرفاخال، وصف إفريقية ، ترجمة محمد حجي و محمد زنيير ، محمد الأخضر، أحمد توفيق و احمد بنجلون، الجمعية المغربية للتأليف او الترجمة و النشر و دار المعرفة بالرباط: 1408-140 هـ / 1988-1989م ، ج2 ، ص: 298
- ⁵¹ نفسه.
- ⁵² يكتبه البكري باسم محمد ابن أبي عون :البكري، المصدر السابق، ص:70.و ابن حيان يكتبه محمد بن عون :ابن حيان المصدر السابق، ص:385.
- ⁵³ يبدو انه محمد بن عبدون بن محمد بن فهد المتوفى سنة 368 هـ / 978م فقد كان عالما بالوثائق :
- القاضي عياض(بن موسى اليحصي)، ترتيب المدارك في معرفة اعلام مذهب الإمام مالك، تحقيق سعيد أحمد اعراب، مطبعة فضالة المغرب، طبعة 1981-1983، ج6، ص-ص: 139-140.
- ⁵⁴ البكري ، المصدر السابق، ص: 70.
- ⁵⁵ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص: 191.
- ⁵⁶ ينظر أعلاه.
- ⁵⁷ يمكن المقارنة مع القلعة التي سماها ابوزكريا بقلعة سدادة :
- أبوزكريا يحي بن عبد الرحمن الورجلاني ، أخبار الأئمة و سيرهم ، تحقيق اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984، ص: 176.
- ⁵⁸ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص:316.
- ⁵⁹ Jean-Noël Biraben ,l'évolution de nombre des hommes ,population et société, n° 394 ,octobre 2003,p :2.
- ⁵⁹ ابن الأثير ، المصدر السابق، ج9، ص:31.
- ⁶⁰ لسان الدين بن الخطيب ، الحلل الموشية في ذكر الخبر المراكشية ، تونس 1329 هـ ، ص-ص 112-113.
- ⁶¹ ابن عذارى ، المصدر السابق، قسم الموحدين ، ص:49.
- ⁶² التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) ، رحلة التيجاني . تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ،الدار العربية للكتاب ،ليبيا - تونس 1981 ، ص:116.
- ⁶³ نفسه .
- ⁶⁴ أبو عبيد البكري، المصدر السابق، ص: 60.
- ⁶⁵ ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص: 118.
- ⁶⁶ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج7، ص: 75.
- ⁶⁷ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج7، ص:293.
- ⁶⁸ التنسي (محمد بن عبد الله التنسي)، نظم الدرر و العقيان في بيان شرف بني يزان تحقيق محمد بوعيادة ، الالمؤسسة الوطنية للكتاب : الجزائر 1405 هـ / 1985م ، ص: 130.
- ⁶⁹ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص: 192.
- ⁷⁰ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص: 206 و ج7، ص: 103.
- ⁷¹ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص: 227.

⁷² التنسي ، المصدر السابق، ص: 143، هامش: 192.

⁷³ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6، ص: 499.

⁷⁴ ابن خلدون ، المقدمة، ج2، ص: 516.

⁷⁵ ابن خلدون ، المقدمة، ج6، ص: 227 و ج7، ص: 293.

⁷⁶ ابن خلدون ، المقدمة، ج3، ص: 926.